(٣١)

نظرة في طريقة التدريس الجامعي

طريقة التدريس عنصر مهم من بين عدة عناصر يتكون منها المنهج ، وليس من السهل تناول الطريقة بمعزل عن المنهج ؛ ذلك لأن المنهج نظام تتكامل عناصره ، ويؤثر بعضها في بعض ؛ فالأهداف التعليمية مثلاً هي المحور الأساسي للمحتوى التعليمي ، وهذا وتلك من أهم المؤثرات في نوع طريقة التدريس ، والوسائل التعليمية المساعدة .

ولصعوبة الحديث عن الطريقة بدون الإشارة إلى الأهداف والمحتوى فإنه يصبح لزامًا علينا ـ والحال هذه ـ أن نذكر أن اختيار طريقة التدريس المناسبة يرتبط عضويًا بنوع الأهداف المحددة ، وبنوع المحتوى وبمستوى التلاميذ الفكري والتحصيلي كذلك ، ومن هنا تبدو أهمية تحديد الأهداف بدقة ، وتحديد نوع الخبرات التعليمية ؛ حتى يسهل بعد ذلك اختيار طريقة التدريس المناسبة .

وبتعبير آخر ، إذا كنا نود تطوير طريقة التدريس ؛ فإنه يتحتم علينا أن ننظر إلى هذه الطريقة في إطار العملية التعليمية كلها ، بل وفي إطار الفلسفة التربوية العامة التي تحكمها ـ كذلك ـ .

والموقف التعليمي معقد للغاية ، وليست الطريقة إلا عاملاً واحدًا أو متغيرًا من عدة متغيرات ، فهناك تلميذ له خصائص معينة ، ودرجة معينة من الاستعداد ، ثم هو في فصله يجلس مع أقران له بينهم أوجه شبه وأوجه اختلاف ، وهناك ـ أيضًا ـ بيئة ثقافية يأتي التلميذ منها متأثرًا بظروفها التي تؤثر ـ بالتالي ـ في درجة استعداد التلميذ ، وهناك معلم بقدرات وكفاءات

معينة ، وباتجاهات متباينة نحو المهنة ونحو من يقوم بتعليمهم كذلك هناك إمكانات تعليمية تتوافر أو لا تتوافر للمدارس .

هذه العوامل كلها أو المتغيرات ذات تأثير مباشر في تحصيل الطالب للأهداف المحددة وفي درجة هذا التحصيل ؛ ولذلك ينبغي أن تُؤخَذ في الحسبان في عملية التدريس .

وطريقة التدريس تتأثر ـ بصورة أو بأخرى ـ بهذه العوامل المشار إليها وبمقدار تأثرها إيجابًا بهذه العوامل تكون كفاءتها في أداء ما يفترض أداؤه .

وقد تعددت الطرائق وتنوعت ، وأخذت عدة أسماء ، فهناك طريقة المحاضرة ، أو الخطابة ـ كما تسمى أحيانًا ـ ، وهناك طريقة «هربارت» ذات الخطوات الخمس الشهيرة الإعداد ، والعرض ، والربط ، والتعميم ، وأخيراً التطبيق وهناك كذلك طريقة حل المشكلات "Problem Solving" وطريقة الاستقصاء والاكتشاف "Inquiry - Discovery Method" وهي تلك الطريقة التي ترى ضرورة الوحدة بين المحتوى والطريقة ، وترى كذلك أهمية الفهم والاكتشاف الذاتي بدلاً من الحفظ ، والترديد .

تلك هي أشهر الطرائق التي ظهرت في مجال التعليم ولكلٍّ مزاياها ، وعيوبها لكن طريقة منها قد تكثر مزاياها ، وتقل أخطاؤها مثل طريقة حل المشكلات وطريقة الاكتشاف ؛ ولأن أي طريقة مهما بلغت مزاياها وكثرت لا يمكن أن تحل ـ وحدها ـ جميع المشكلات التعليمية في الموقف التعليمي . كذلك يذكر كثير من المهتمين بهذا المجال أنه لا يُوجَد ما يسمى بالطريقة النموذجية التي تصلح لكل موقف ولكل محتوى ، ولكل فرد .

من هنا لجأ كثيرون إلى الدعوة إلى الإفادة من مزايا الطرائق المختلفة ، بحسب الموقف المعين ، بل وإلى الدعوى إلى تبني بعض المبادئ العامة التي تزيد من فعالية الطريقة لهما كانت سيئة في الأصل ؛ ذلك لأن الموقف التعليمي فيه كثير من المتغيرات التي قد تفرض على المعلم تغيير

استراتيجيات ، والأخذ ببعضها ، وترك البعض الآخر ، إذا تبين له ما يـدعو إلى ذلك .

وفي الحقيقة يمكن للمعلم أن يستخدم أكثر من طريقة من الطرق السابقة في التعليم ، فهو يستخدم أسلوب المحاضرة مع شيء من التعديل والتحسين ويستخدم خطوات «هربات» في تقديم موضوعه ، مع إعطاء الفرصة الأكبر لتلاميذه كي يشتركوا معه ، كذلك يستطيع أن يستخدم أسلوب حل المشكلات ببناء التعليم حول عدة مشكلات يخطط لها مع تلاميذه ويضع الإطار العام لحل هذه المشكلات ، والتلاميذ هم الذين يقومون بالتنفيذ تحت إشراف المعلم ، وأخيرًا يستطيع المعلم أن يبني برنامجه حول مجموعة من الأسئلة والموضوعات التي يطلب فيها من التلاميذ أن يبحثوا ، وأن يدرسوا ، وأن يقدموا التقارير الكتابية والشفوية .

وكما هو واضح فالطريقتان الأخيرتان متكاملتان ، ولو أن الطريقة الأولى ترتبط أكثر بالمشروعات "Projects Curriculum" العملية ؛ لأنها نشأت أساسًا في ظل منهج المشروعات ، وتقاس فعالية الطريقة بإحدى الوسائل الآتية :

١- بالملاحظة .

٢-بمراجعة نتائج التلاميذ ، وبآرائهم في معلميهم .

٣- وأخيراً بتحليل التفاعل ـ اللفظي داخل حجرة الدراسة . " Vorbal Intercation".

وعلى أية حال ، فلا يمكن الاعتماد على وسيلة واحدة من الوسائل السابقة بدون الأخذ في الاعتبار الوسيلتين الأخريين ، لكن يمكن القول بأن نتائج التلاميذ وآراءهم في معلميهم أهم مؤشرات فعالية الطريقة المستخدمة ، وأهم مؤشرات كفاءة المعلمين ـ بصفة عامة ـ .

ولأن طريقة التدريس السائدة في الجامعة هي طريقة المحاضرة ، وبصفة

خاصة في الكليات النظرية ؛ فإننا سوف نعرض هنا بعض الأساليب التي يمكن أن تساعد في تحسين هذه الطريقة :

١- استخدام أسلوب المناقشة :

والمناقشة أسلوب من الأساليب التي تضفي على طريقة المحاضرة كثيراً من الحيوية والإيجابية ، كذلك فهي ـ في ذات الوقت ـ تعطي الطلبة فرصة للتعبير عن أنفسهم وللاستفهام عن الأشياء التي لا يعرفونها ، كما تعطي المعلم فرصة للتأكد من مدى تحصيل طلبته لموضوع المحاضرة .

وفي هذه الحال ، يمكن أن تكون المناقشة أسلوب الجماعة كلها ، أو أن تقسم الجماعة إلى مجموعات صغيرة لمناقشة جزء معين من المحاضرة ، ثم بعرض أحد أفراد كل مجموعة على المجموعات الأخرى ما انتهت إليه المناقشة .

وفي المناقشة فرصة طيبة لترسيخ مبادئ الديمقراطية ، من الحرية في إبداء الرأي واحترام آراء الآخرين مهما كانت متناقضة مع رأي من يسمعها ، واستخدام العبارات الدقيقة والمعبرة ـ بصدق ـ عن الرأي ، ولا شك أن هذه المبادئ وغيرها من أهم ملامح هذا العصر .

٢- تمثيل المواقف :

ويقصد بهذا الأسلوب أن يعطي المعلم بعض طلبته فرصة إعداد بعض الدروس ، وإلقائها على زملائهم .

وهذا الأسلوب له دور مهم في حفز الطلبة على القراءة ، وإبداء الرأي فيما يقرءون ، ومواجهة المواقف الاجتماعية المختلفة التي تتطلب إبداء الرأي والاشتراك في الندوات ومواجهة الجمهور ، ومن المؤسف أن كثيراً منَّا ـ لعدم الخبرة بمثل هذه المواقف ـ يعجزون عن إبداء رأيهم ويقفون عاجزين في المواقف التي تتطلب الشجاعة والحديث ، وإبداء الرأي .

ويمكن لأكثر من طالب أن يشترك في إعداد محاضرة ، بحيث تعرض كندوة يقوم طالب بعرض جزء من الموضوع ، ويليه آخر . . . إلخ ، ثم يدور الحوار حول الموضوع بين الطلبة ، والمجموعة المشتركة في تقديم المحاضرة.

وفي هذه الحال ، يمكن استخدام جهاز فيديو لتسجيل هذه الندوة ، أو لتسجيل المحاضرة ، ومن المعروف في ميدان طرق التدريس الآن أن التعليم المصغر "Microteaching" الذي يستخدم فيه جهاز الفيديو "Video Tape" يلعب دورًا مهمًا في تحليل مهارات التدريس ، وفي التدريب عليها ، وفي تنمية هذه المهارات والسيطرة عليها وقتًا بعد آخر ، كما أن الجهاز بما له من خصائص فنية يحدث «تغذية راجعة» بالنسبة للطلبة الذين يشاهدون أداءهم مرة أخرى معروضًا بجهاز الفيديو ، ومن ثَمَّ يتعزز الجانب الإيجابي في الأداء، ويتعرف الطالب ـ علاوة على ذلك ـ جوانب القصور فيه .

ويفيد التعليم المصغر بصفة خاصة في تدريب الطلبة ـ المعلمين ، أو لمن يُعدُّون لمهنة التعليم ، وقد قام بعض أعضاء هيئة التدريس بقسم التربية بكلية التربية باستخدام التعليم المصغر في تدريب الطلبة ـ المعلمين ، وقد لوحظ التجاوب من قبل الطلبة والحماسة في الأداء ، والتقدم المستمر في السيطرة على مهارات التدريس .

٣- التقويم المستمر :

ومن الوسائل المهمة في تحسين طريقة المحاضرة الالتفات إلى التقويم للأهداف المحددة سلفًا ، ومن المهم أن يكون التقويم مستمرًا ، ويرتبط بالأهداف الخاصة بالمراحل المتعددة للمحاضرة ، كما يرتبط بالأهداف العامة لها .

ويؤدي التقويم المستمر دورًا لا يُنكَر في :

١- التأكد من مدى سيطرة الطلبة على الأهداف المحددة .

٢- وفي تعزيز الإجابات الصحيحة لهم، وحفزهم على مزيد من التحصيل.

ومن المفيد في مجال التقويم الاهتمام بما يسمى بمراتب الهدف ، أو بالمراحل التي يمر بها تكوين الهدف ، وينصح علم النفس التعليمي بأن تقوم كل مرحلة من مراحل الهدف ، أو كل مرتبة من مراتبه ، بحيث لا ينتقل الطالب من مرحلة إلى أخرى حتى يتقن المرحلة السابقة ، وقد تنبه المسلمون إلى ذلك ؛ يقول عتبه بن أبي سفيان ناصحًا مؤدب ولده . . « . . . ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغله للفهم» .

والتقويم له دور لا ينكر كذلك في تحديد الصعوبات التي لدى بعض الطلبة ، ومن ثم دراستها ، وتحديد أساليب العلاج ومن أهم ملامح التربية الحديثة الاهتمام بالطالب كفرد ، بقدراته ، واستعداداته ، وإمكاناته هو ؛ ولذلك ينبغي تفريد التعليم له "Individualization" بحيث يمكن للطالب أن يبذل قصارى جهده في التحصيل وبحيث تستغل قدراته إلى أقصى حد ممكن .

ويستلزم تفريد التعليم ، تخصيص بعض الأوقات الإضافية للطلبة المتأخرين دراسيًّا ، والساعات المكتبية لأعضاء هيئة التدريس يمكن أن يُستغَل بعضها في ذلك ، كذلك يلزم تفريد التعليم تخصيص بعض المواد التعليمية المناسبة لأولئك ، واستخدام بعض الوسائل التعليمية المرتبطة بموضوع المحاضرة .

كذلك من المهم في التقويم أن تتنوع أساليبه فهناك اختبارات المقال الطويلة أو القصيرة ، وهناك الاختبارات الموضوعية بأنواعها ، ومن اللازم أن تتنوع الأسئلة ، فهناك أسئلة تسأل عن المعارف وعن تذكرها ، وهناك أسئلة تسأل عن التطبيقات المختلفة للمادة المتعلمة ، وهناك أسئلة ترتبط بأسلوب المعالجة للموضوع ، وهناك أسئلة تتعلق بالتحليل أو بالتركيب ، وأخرى ترتبط بالتقويم ، وبتعبير آخر ، ينبغي أن تتنوع الأسئلة بحيث تشتمل على المراتب الست للجانب الفكري أو المعرفي عند «بلوم» وهذه المراتب بدءًا من الأدنى إلى الأعلى هي :

التذكر ـ الفهم ـ التطبيق ـ التحليل ـ التركيب ـ التقويم .

٤- استخدام الوسائل التعليمية :

لا يميل معظمنا إلى استخدام الوسائل التعليمية في محاضراته ، ولعل السبب في ذلك يعود أساسًا إلى أننا لم نألف هذا النوع من الوسائل سواء في تعلمنا ، أو في تعليمنا علاوة على ذلك فإن تقويمنا لطلبتنا يعتمد - إلى حد كبير - على السلوك اللفظي دون الاهتمام بالاستجابة العملية ، وأخيرًا للفصل الحاد الموجود في أنظمتنا التعليمية بين النظري والعملي ، أو بين الآلة والكتاب ، ومن ثمَّ يري البعض أن استخدام الوسائل نوع من الترف ، وتضيع الوقت .

ومنذ بداية القرن السابع عشر الميلادي والدعوة إلى استخدام الوسائل التعليمية في عملية التدريس ما تزال مستمرة ، فمنذ «التسيكوسلوفاكي كومينوس» (١٦٧٠م) والمربون يدعون إلى الوسائل التعليمية باعتبارها ذات أثر مباشر في مدى حماسة التلاميذ للمادة المتعلمة ، وفي إيجابية التعلم ، وفي وضوح المفاهيم المحصلة ، وفي إطالة مدى الانتباه وفي التغلب على الفروق الفردية ، وفي التعويض عن المواد التي ليست متاحة ، أو التي لا يمكن إحضارها إلى حجرة الدراسة . . إلخ ، بل إن التربية الحديثة بالغت في الاهتمام بتمثيل الأفكار المختلفة في موضوعات مجسدة ، وقد تنبه المسلمون إلى أهمية استخدام أكثر من حاسة ، أو أكثر من وسيلة في عملية التعلم ، فهذا سيدنا عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - يأمر عبد الله بن عامر الخزاعي في تعليم القرآن الكريم للصبية «أن يكتب للبليد على اللوح وأن يُلقِّن الفهيم من غير كتب» .

وقد أحسنت الجامعة صنعًا حين أتاحت لأعضاء التدريس بها التدرب على الوسائل التعليمية المختلفة ؛ ولكن لا ينبغي أن يقف الأمر عند هذا الحد بل لابد أن تُعرَض الأفلام والشرائح والتسجيلات المختلفة المتعلقة بكل مجال من مجالات المعرفة عليهم حتى يتعرفوا ما هو متاح منها حتى يمكنهم أن

يستخدموه ، علاوة على ذلك لابد أن تُتَاح الفرصة لإنتاج بعض الأفلام والشرائح والتسجيلات المصاحبة باللغة العربية حتى يمكن أن تتوسع قاعدة المستفيدين منها ، أو على الأقل يُترجَم ما هو موجود منها إلى اللغة العربية ، لأن كثيرًا ممن يستخدمون هذه الوسائط قد لا يستفيدون منها استفادة كاملة بسبب سرعة العرض ، أو بسبب عدم القدرة على متابعة اللغة الأجنبية .

وإذا كان لابد أن نشير إلى الزيارات الميدانية كوسيلة من الوسائل التي يمكن أن يكون لها دور في تحسين أسلوب المحاضرة فإنه ينبغي أن نقول ـ بأمانة ـ أن كثيرًا من الزيارات الميدانية لا ترتبط أساسًا بالمسافات الدراسية المطروحة ؛ ولذلك فإن الهدف الذي يتحقق إنما هو ـ في الغالب ـ هدف ترفيهي .

وللزيارات الميدانية آثار لا تنكر في تحسين طريقة المحاضرة ، بل وفي زيادة كفاءة التدريس ـ بصفة عامة ـ أيًا كانت الطريقة المستخدمة ، ولابد من التخطيط للزيارة ، وتحديد الأهداف التربوية ، وكتابة التقارير العلمية عن الزيارة ، وتقويمها من قبل الطلاب والأساتذة والإداريين .

ومن أهم أهداف الزيارات الميدانية ، ربط الجامعة أو المؤسسة التربوية بالبيئة ، بما فيه مصلحة الجامعة ، وتطوير البيئة ، وتحديد المشكلات التي يمكن للبحث العلمي أن يسهم بقدر في حلها وتنمية الحساسية الاجتماعية لدى الطلاب وترجمة الهادئ والنظريات إلى حلول عملية لمواجهة مشكلات البيئة . . إلخ .

وبعد فهذه أساليب أو وسائل أربعة يمكن أن تسهم في تحسين طريقة المحاضرة التي طالما كثرت الشكوى منها ، كذلك فإن ما ذكر تحت هذه الأساليب أو الوسائل مجرد خطوط عامة تبين السبيل ، وتفتح المجال لمزيد من الدراسات والمناقشة .

* * *